المحاضرة السابعة

مشكلات إبستمولوجية في علم الاجتماع

– المولد:

أهم سؤال في هذا المبحث هو: هل السوسيولوجيا علم؟

ولد علم الاجتماع في أوساط المجتمعات الغربية في فترة الحيرة الفكرية التي كانت تعيشها نتيجة المشاكل آنذاك. وهو يحاول (علم الاجتماع) توسيع رقعة بحثه بدراسته لمختلف الظواهر الاجتماعية (المدينة، الأسرة، التواصل...)، تعددت مقارباته وتنوعت: فالبعض من علمائه يركز على مبدأ الانتظام والحتمية، والبعض الآخر، يركز أكثر على معقولية، أو تحليل التجربة العادية الاجتماعية.

إذا انطلقنا من مبدأ عدم تسمية علم الاجتماع، نظرية أو مقاربة، يمكن في هذه الحالة، يمكن رد المحاولات الأولى في هذا المجال إلى أفلاطون. أما إذا انطلقنا من العكس، أي من بداية الدراسات الجادة فيه، يمكن القول، بأن البدايات كانت في النصف الثاني من القرن 19، أي في فترة عرفت المجتمعات الغربية، وكذا المجتمع الأمريكي، تقلبات نتيجة تفاعل ثلاث ثورات:

– سياسية – الثورة الفرنسية

– اقتصادية — الثورة الصناعية

– فكرية — النهضة العلمية الحديثة

هذه الثورات الثلاث وضعت حدا لفكرة أن المجتمع يخضع لتوجيه ونظام إلهي أو طبيعي.

من الفلاسفة الذين انخرطوا في هذا الفكر الجديد، وذلك من خلال النظر والتحري في طريقة وضع الإنسان للتاريخ:

– ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville (1805-1859) ودراسته حول الديموقراطية في أمريكا[1]، من خلال كتابه: De la démocratie en Amérique المجلد 2، 1835-1840 .

– كارل ماركس Karl Marx (1818-1883) وفكرة الصراع الطبقي.

من جهة أخرى، يمكن ملاحظة تطور البحوث والدراسات في مجال الإحصاء، وحول بعض الظواهر الاجتماعية (مواضيع) الجديدة، كظاهرة الفقر مثلا. وبالرغم من هذه المحاولات، لم تكن لهؤلاء فكرة التأسيس لهذا النشاط (علم الاجتماع).

[1] Alexis de Tocqueville, De la démocratie en Amérique, Institut Coppet, 2012.

يرجع الفضل للعالم الاجتماعي الفرنسي إميل دوركهايم Durkheim (1858-1917) في اتمام هذا الجهد، أي التأسيس لهذا العلم، بحيث، يعتبر أول من استعمل مصطلح سوسيولوجيا سنة 1839 بمفهوم أنه علم صارم ودقيق، يعنى بالوقائع الاجتماعية، وغايته بيان أن هذه الوقائع (اللّغة، القيم، الدين)، تتميز بطبيعتها الخاصة المختلفة عن تلك النفسية الذاتية، كالتفكير، و الإحساس، وردود الفعل، لأنها تظهر خارج الفرد في شكل سلوك في المجتمع[2].

في ألمانيا، ظهر من ساهم بشكل معيّن في بناء هذا النشاط الجديد (علم الاجتماع)، دود أن يعد من علماء الاجتماع، إنه ماكس فيبر Max weber (1864-1920) ، وبالرغم من كونه عالم اقتصادي، فإنه ساهم في التأسيس لعلم الاجتماع من خلال كتابين[3]، حين عرّفه في كتابه: الاقتصاد و المجتمع Économie et société.على أنه محاولة فهم المعنى الذي يعطيه الفرد لممارساته.

يمكن الحديث، كذلك، عن الفيلسوف جورج سمال Georges Simmel (1858-1918)، الذي دافع عن فكرة علم الاجتماع الشكلي المبني على أساس الأفعال المتبادلة بين الأفراد.

انطلاقا من هذه الإجراءات اتجه علماء الاجتماع الأوائل إلى تفسير هذا التغيّر الذي يلاحظونه في المجتمع. من بين القضايا التي حاول هؤلاء تفسيرها: خصوصية الحداثة المتضمنة في عقلنة الحياة الاجتماعية، والتي تؤدي إلى استياء العالم، وهذا ما تحدث عنه فيبر. من جهة أخرى، تحدّث دوركهايم عن تفسير الفعل الاجتماعي، الذي يعمل على تحرير الفرد، ويجعل منه أكثر ارتباطا بالمجتمع. ويذهب إلى البحث عن أسس الظاهرة الدينية، لكي يستنتج فكرة أن الله هو المجتمع[4] Dieu, c'est la société.

على العموم، تُفسّر المعرفة الاجتماعية آنذاك، على أنها معرفة من أجل الفعل: يتعلق الأمر بتمكين المجتمع من حل المسائل التي تواجهه، وهذا يزيد علم الاجتماع اتصالا بالواقع قد يرقيه إلى مصاف العلوم الطبيعية.

– علم الاجتماع من أوروبا إلى أمريكا:

بالرغم من المحاولات علماء الاجتماع المؤسسون التي ظهرت في أوروبا، إلاّ أن هذا العلم لم يعثر على مكان له في معاهد التدريس، لكمه استطاع بفضلهم غزو الكثير من مجالات الحياة الاجتماعية بفضل الدراسات التي قدّمها هؤلاء أمثال:

---

2 Durkheim, Les règles de la méthode sociologique, Paris, Ancienne Librairie Germer Baillière et Cie, 1895.

3 - Max Weber, Économie et société, Les catégories de la sociologie, Tome1.
-Max Weber, Économie et société, L'organisation et les puissances de la société dans leur rapport avec l'économie . Tome 2

4 Durkheim, Les formes élémentaires de la vie religieuse, Le système totémique en Australie Paris, puf, 1912.

– فراسوا سمياند François Simiand (1873-1935)، الذي اهتم بعلم الاجتماع الاقتصادين من خلال كتابه:
1932 Le salaire, L'évolution sociale et la monnaie

– موريس هالبفاك Maurice Halbwachs من خلال كتابيه: 1950 La mémoire collective
1938 La morphologie sociale

وعلى العكس من ذلك شهد علم الاجتماع تطورا ملحوظا، وذلك بفتح أول معهد لتدريس هذ التخصص الجديد سنة 1893 بجامعة شيكاغو Chicago، وتطور في ضل البراغماتية سنة 1920 بفضل البحوث التجريبية، التي اتخذت المدينة كموضوع لها، ذلك لكونها مجال اللقاء والتفاعل والأحداث التي جلبت اهتمام علماء الاجتماع، كما أنها وعاء لموضوعات كثيرة: كالأحياء، والهجرة، والتهميش، والانحراف ... أدى ذلك إلى ظهور مدرسة شيكاغو الاجتماعية الثانية سنة 1930 تحت إشراف هربارت بلومر Herbert Blumer (1900-1987).

لم تشهد فضاءات النقاش، ولا معاهد الدراسات نشاطا في مجال علم الاجتماع، إلاّ بعد الحرب العلمية الثانية، وفي أمريكا بالضبط، اين تطور فيها علم الاجتماع بشكل ملحوظ، في المقابل حاولت أوروبا استدراك هذا التأخر، وذلك بتطوير بحوثها في مختلف المجالات من خلال أعمال:

– ألان توران Alain Touraine

– جورج غورفيتش Georges Gurvitch (1894-1965)، اهتما بدراسة عالم الشغل، والمدينة.

كما أن زيادة طلب المجتمع لمعرفة تطور بعض المظاهر، والظواهر الاجتماعية، سمح بتوسيع دائرة البحوث في مختلف المجالات، ابتداء من الستينات:

– إدغار موران Edgar Morin تحليل ودراسة الأساطير التي تحمل الإرث الثقافي، كتاب: L'esprit du temps 1962 وكتاب: Les stars 1957.

– جوفر دومازديه Joffre Dumazedier (1915-2002)، اهتم بدراسة ثقافة الترفيه، واستغلال عنصر الوقت.

– هنري مندراس Henri Mendras (1923-2003) من خلال كتاب: نهاية البدو La fin des paysans 1967

– بيار بورديو Pierre Bourdieu (1930-2002)

– جان كلود باسرون Jean-Claude Passeron ، كلاهما اهتما بالبعد الرمزي للامساواة.

من خلال هذا العرض للنماذج التي عملت على توسيع دائرة البحوث الاجتماعية، يمكن ملاحظة ظاهرة انفجار البراديغمات، وهو دليل على اختلاف وجهات النظر، وأن لكل نظرية اجتماعية براديغم تؤمن به.

في فرنسا: ظهور أربع مقاربات، التي سوف تحدد مجال النقاش، والتي سوف تنقسم، وتختلف حول مسألة الفعل (الممارسة) الاجتماعي مع:

– مقاربة بورديو: وفكرة اكتساب العادات، وهي مجموعة الاستعدادات المكتسبة التي تمكننا من السلوك وفقا لما يحيط بنا.

– مقاربة توران: الفاعل (الممثل الاجتماعي)، يحمل في طياته تاريخانية، ويعنى هذا، فعل وتأثير المجتمع على الممارسات الاجتماعية والثقافية.

– مقاربة ريمون بودون Raymond Boudon (1934-2013)، يتحدث عن الفردانية المنهجية individualisme méthodologique، وخلاصة نظريته، أن جل السلوك يمكن تفسيره تفسيرا عقليا.

– مقاربة ميشال كروزييه Michel Crozier (1922-2013)، يقترح فكرة عقلانية الممثل الاجتماعي، لكن عقلانية محدودة، لأن الممثل يمتلك دائما جانبا من النشاط والتصرف أكثر أو أقل من النسق الذي ينشط خلاله. وبهذا يكون كروزييه، المصمم الرئيسي للتحليل الاستراتيجي والعمل الجماعي في علم اجتماع المنظمات. واصلت هذه المقاربات الأربع بحوثها حول مختلف الموضوعات:

– بورديو: في مجال التربية، الثقافة، عالم الفكر.

– توران: في مجال العمل والأدوار الجماعية.

– بودون: في مجال المعتقدات والإيديولوجيات.

– كروزييه: في مجال المنضمات.[5]

في أمريكا: اهتمت بعض النظريات بالمظاهر الاجتماعية العادية، وقد كان التيار الأكثر حضورا هو تيار التفاعلية الرمزية L'interactionnisme symbolique.

التفاعلية: نظرية اجتماعية تقوم على فكرة أن العمليات الاجتماعية مثل: الصراع، التعاون وتكوين الجماعات، تنتسب إلى التفاعل بين الناس (البشر). والنظرية الأكثر تطورا في التفاعلية، هي التفاعلية الرمزية: وهو التواصل اللفظي وغير اللفظي بين البشر أو الحيوانات، يُحدد المعنى الذي يمنحه البشر والحيوان للعالم ولوضعياتهم الخاصة. تعمل هذه النظرية على تأكيد أن المجتمع يخلق نفسه، ويعيد خلق نفسه خلال التفاعلات اليومية، العادية.

– السياق المعاصر:

ابتداء من الثمانينات 1980 ونتيجة تطور وتغيّر المجتمع، وتغيّر مظاهره (الأزمة الاقتصادية، أشكال التجمعات والانتماءات – الطبقات الاجتماعية–، النقابات، الأحزاب السياسية)، كل هذه المظاهر أصبحت تشهد الأفول،

---

5 Nicolas Journet (Sous la direction), Les grands penseurs des sciences humaines, Paris, Sciences Humaines Éditions, 2016.

بينما يستمر علم الاجتماع في ميادين أخرى (الهجرة، الانحراف الشبابي...)، والأكثر من هذا أفول الماركسية والبنيوية، وتوجه جل البحوث، والأعمال المعاصرة إلى تجاوز بعض المواقف التي تأسس عليها علم الاجتماع، وهي الثنائيات المتقابلة مثل:

المادية/ مثالية، الفرد/ الجماعة، الذات/ الموضوع، العالم الأكبر/ العالم الأصغر، وظهور مجال أوسع، واهتمام أوسع كالبِنَائِيةُ[6]. فعوضا من العمل على مقابلة الكلمات بعضها ببعض، نحاول تقريبها من بعضها البعض للتعبير عن مختلف الأبعاد الاجتماعية.

يبقا أن مجال علم الاجتماع، مجال واسع، كما أن الاختلاف حول قضاياه هو السمة المميزة له من نظريات وتيارات، يمكن رصد هذا الاختلاف في مسألتين:

1– الفرد: موضوع مركزي في علم الاجتماع.

2– المعرفة العادية: بالرغم من أن علم الاجتماع نشأ محاربا لفكرة المعنى المشترك، إلّا أن هذا الأخير نال اهتمام علماء الاجتماع، من خلال مبحث فينومنولوجيا الاجتماعية[7] Phénoménologie Sociologique.

– مشكلات علم الاجتماع الإبستمولوجية:

للإجابة عن السؤال الأهم هل السوسيولوجيا علم؟ La sociologie est-elle une science ?

يحاول علماء الاجتماع إقناع أنفسهم بأنهم يتعاملون مع موضوعات هذا النشاط تعاملا علميا، وبالتالي فإن علم الاجتماع في نظرهم، هو علم حقيقي مثله مثل العلوم الأخرى الطبيعية، فهل هذا صحيح؟

لا شك أن الكثير من الدارسين لعلم الاجتماع، ليسوا على أتم القناعة بأنه علم ويرجع ذلك للأسباب التالية:

– إنه نشاط هجين: إنه ليس بعلم بل هو نشاط، وفرع من فروع المعرفة، يماثل في ذلك التاريخ[8]. إن التراكم المعرفي في هذا النشاط جعل منه غير معين الحدود بين مثلا: الفلسفة لاجتماعية وعلم الاجتماع. وهو عبارة عن نظام هجين، ممزق بين الأساليب المعرفية ذات المطالب المتعارضة، والأهداف غير المتوافقة تقريبا، والتوجهات النظرية المتباينة، وتفضيلات الطريقة التي ليس من السهل، في كل الأحوال، تبريرها.

– إنه عبارة عن شراكة غير متجانسة: ذلك أن أول أمر يتقاسمه علماء الاجتماع، هم مختلفون فيه، فإذا كان البعض منهم يعطي اهتماما للبحث عما هو ثابت من السلوك الإنساني، فإن البعض الآخر يتمسك، قبل كل

---

6 Philippe Corcuff, Les nouvelles sociologies, 3ème édit, Paris, Armand Colin, 2011.

7 مقاربة في البحث تؤكد على الخبرة البين ذاتية، كعنصر مهم في فهم الممارسة الاجتماعية في علم الاجتماع.

8 Coenen Huther, Les paradoxes de la sociologie , Paris, L'Harmattan, 2012.

شيء، بفكرة توضيح التنوّع الكبير لنمط الحياة في المجتمع. إلى جانب هذا التباين في الغايات، هناك خط فاصل آخر مهم، يتعلق الأمر بفكرة اختزال والتقليل من التعقيد الذي تتصف به الحياة الاجتماعية، بحيث تظهر تجربة النصف الثاني من القرن الحالي، تركيز العلوم الاجتماعية اهتمامها على دراسة عددا قليلا من المتغيرات العلمية. فمن جهة يُظهر هذا الاهتمام أن الفكر السوسيولوجي غير منقوص من فكرة اختزال التعقيد، ومن فكرة النَمْذَجَةِ Modélisation، لكن من جهة أخرى، نجد أن معانيها في تنافس على الدوام في أوساط المتّحد العلمي السوسيولوجي.

من هنا يضل علماء الاجتماع ممزقين بين الاكتشافات غير الانتقائية لكل ما يمكن للحياة الاجتماعية تقديمه لنا، وبين أشكال مختلفة للنمذجة التي تتميز بابتعادها عن الموضوع المدروس. لذلك يُتَهَمُ البعض بأنهم غير علميين، بينما يتهم آخرون بتنظيم عمليات بحث غير مناسبة لدراسة الحياة في المجتمع.

لقد تحدثت مجموعة من مفكرينا أمثال الوقيدي وبنعبد العالي، وغيرهم في كتاب: إشكالية المنهج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، عن المناهج المستخدمة في العلوم الإنسانية، وقد عرضو بعض الأمثلة عن بعض المواضيع (الظواهر) المدروسة في بعض العلوم منها على سبيل المثال: ظاهرة الجناح La délinquance الاجتماعية، التي يعتمد في دراستها على الإحصائيات والأرقام التي تقدمها الهيئات الرقابية والأمنية، من الشرطة، والدرك لهذه الظاهرة. ونحن نعلم أن هذه الإحصائيات لا تغطي كل الظاهرة الجانحة وهذا لعدة أسباب، على حد تعبير مفكرينا، نذكر منها:

- هناك الجناح الخفي La délinquance cachée.
- غياب معايير الحكم على الجناح.
- اختزال الظاهرة الجانحة على النشاط الذي تقوم به أجهزة المراقبة وهذا لا يقدم لنا شيء عن حقيقة هذه الظاهرة
- الطابع الانتقائي الذي يقتصر على دراسة عينة معينة، مثلا مراقبة أكثر للأطفال الذين يقطنون الأحياء الفقيرة يعطينا انطباع كنتيجة بعد الإحصاء أن الفقر سبب لظاهرة الجناح، في حين أن هذه الظاهرة نجدها منتشرة في وسط الأغنياء كذاك. فعدم توفر شرط التمثيل الصادق La représentativité في العينات يجعل من النتائج غير قابلة للتعميم، وهو شرط من شروط صحة ودقة القوانين[9].

---

9 ع.بنعبد العالي، م.وقيدي وآخرون، إشكالية المنهج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، ط2، دار توبقال للنشر، المغرب، 2001.

– **إنه حلم عنيد:** وذلك نتيجة الرغبة في أن نجعل منه علما مثل العلوم الأخرى، والعمل في مجاله بالاستناد إلى مبادئ علمية مثل تلك التي تتوفر عليها الفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا. يعتقد الدارسون لعلم الاجتماع، أن شرط استمراره وتطوره هو شَلُ تأثير ذاتية الدارس، وبهذا فقط يمكن الاستمرار في علاقة الذات الدارسة (العارفة) بموضوع الدراسة (المعرفة). ثم أنه إلى يومنا هذا، ليس هناك إعادة النظر في هذه العلاقة، أو على الأقل الشك فيه، حتى أصبح يقال أن علماء الاجتماع هم الكثر استماعا للشائعات، وطبعا، هذا يجعل من مواقفهم جد نسبية، إلى درجة عدم التمكن من تكييفها مع موضوع الدراسة.

– **إنه عبارة عن صورة غير واضحة (ضبابية):** بمعنى أن الصور التي تتشكل لدينا حول علم الاجتماع، غير واضحة، ذلك أن جل العلوم لها موضوع دراسة محدد وواضح، وهذا ليس حال علم الاجتماع، لأن هذا الأخير، كثيرا ما نماثله بمجال دراسة المشاكل الاجتماعية Étude de problèmes sociales، كما أن مصطلح سوسيولوجيا يقترن بمعان مختلفة لكلمة اجتماعي Social في لغة الحياة اليومية. كما أننا نقابل الاجتماعي، في بعض الأحيان، بالاقتصادي، لكننا، لا نعلم ما يعنيه علم الاجتماع بـ "الاجتماعي"، ونتيجة ذلك، نلّفق للعالم الاجتماعي أسماء لا علاقة له بتخصصه، من سياسي اجتماعي، أو مساعد اجتماعي. وبما أن علم الاجتماع يُفْهَمُ على أنه مشروع دراسة غير معياري لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، فإن علماء الاجتماع يجدون صعوبة في تجنب الحكام المعيارية في تحليلاتهم، مما يصعّب من عملية الربط بين الواقع ونظرتهم للواقع.

– **يوظف تقنيات يحسبها مناهج:** لقد حول دوركهايم ترقية علم الاجتماع إلى مصاف العلوم الطبيعية، وذلك باقتراحه لمنهج المقارنة أو طرقة المقارنة، بدلا من المنهج التجريبي، في هذا يقول:"حين يتم إحداث الظاهرة من أجل ملاحظتها يكون الطريقة أو المنهج هو التجريب، أما إذا كانت الظواهر ليست في متناولنا، بحيث تحدث تلقائيا، فإن طريقة التعامل معها هي التجربة غير المباشرة أو طريقة المقارنة"[10]. إلاّ أن صورة علم الاجتماع يغلب عليها البعد التقني في البحث والتحري، وليس بناء المفاهيم كغاية، ولا التفكير المنطقي كطريقة في التعامل مع مواضيع البحث. لذلك ينظر لعلماء الاجتماع على أنهم متخصصون، فقط، في مجال الإدارة، أو وضع الاستبيانات، أو تحليل الإحصائيات، بل أنهم ينقسمون حتى في طريقة توظيف هذه التقنيات، ثم أنه يميلون إلى عدم التمييز بين المسائل التقنية والخيارات المنهجية. إلى جانب ذلك لا يميزون تارة بين الإعلانات والأحداث، وكثيرا ما يعترض البحث عن الفرد النموذج، إنشاء نموذج غايته التمثيل الإحصائي.

10 Durkheim, Les règles de la méthode sociologique.

– **موضوع من الصعب الاحاطة به:** يمكن في هذا الشأن الحديث عن أربع مسائل تتصل بصعوبة الاحاطة بالموضوع:

– الحضور الدائم للمجموعة التي تظهر سلوكات فردية عند الدراسة (إثارتهم)، مما يعقد مهمة العالم الاجتماعي التي تهدف إلى الإحاطة بالموضوع والحصول على المشترك من السلوك في المجموعة.

– الظواهر كموضوعات متعلقة وتابعة لبعضها البعض (تعتمد على بعضها البعض)، تكون عواقبها غير متوقعة تماما.

– القيود الهيكلية التي تحدد حرية الأفراد.

– اللامساواة المتكررة التي تعيق التطلعات إلى تحقيق المساواة.

على أساس التحليل السابق، يمكن استنتاج ما يثبت نقص البُعد العلمي الذي يبدو على علم الاجتماع، بالرغم مما يقال عنه بأنه علم مستقل قائم على نفس المبادئ التي تقوم عليها العلوم الأخرى. إن مهمة العالِم الاجتماعي هي تسليط الضوء، وتوضيح البعض مما هو منطقي، أين لا يرى فيه الحس المشترك مجرد سخافة. إلاّ أنه من المستبعد انتظار تقدّم أو تطور في مجال التحليل السوسيولوجي على أساس النقاش المركزي حول الانقسامات الكلاسيكية: العقلاني/ اللاعقلاني. ومهما يكن من نقائص فإن علم الاجتماع يمر بنفس المراحل التطورية التي مرت بها العلوم الأخرى الطبيعية، التجريبية، لكن بصورة ووسائل مختلفة، وهو في تطور مستمر لأنه أدرك بأن خصوصية الظاهرة الاجتماعية تقتضي طرق خاصة للتعامل معها، ومنه لم يعد النموذج المعرفي الكلاسيكي (الفيزياء) هو الغاية، بل الغاية ينبغي أن تكون **فهم** الظواهر الاجتماعية من أجل تقديم الحلول المناسبة لها.

مراجع المحاضرة:

-ع.بنعبد العالي، م.وقيدي وآخرون، إشكالية المنهج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، ط2، دار توبقال للنشر، المغرب، 2001.

- Alexis de Tocqueville, De la démocratie en Amérique, Institut Coppet, 2012.

- Durkheim, Les règles de la méthode sociologique, Paris, Ancienne Librairie Germer Baillière et Cie, 1895.

- Max Weber, Économie et société, Les catégories de la sociologie, Tome1.

-Max Weber, Économie et société, L'organisation et les puissances de la société dans leur rapport avec l'économie . Tome 2

- Durkheim, Les formes élémentaires de la vie religieuse, Le système totémique en Australie Paris, puf, 1912.

- Nicolas Journet (Sous la direction), Les grands penseurs des sciences humaines, Paris, Sciences Humaines Éditions, 2016.

- Philippe Corcuff, Les nouvelles sociologies, 3ème édit, Paris, Armand Colin, 2011.

- Coenen Huther, Les paradoxes de la sociologie , Paris, L'Harmattan, 2012.